

سورة المسد

سميت هذه السورة في أكثر المصاحف (سورة تَبَّت) وكذلك عنونها الترمذي في (جامعه) وفي أكثر كتب التفسير ، تسمية لها بأول كلمة فيها .

وسميت في بعض المصاحف وبعض التفاسير (سورة المسد) . واقتصر في (الإتيان) على هذين .

وسماها جمع من المفسرين (سورة أبي لهب) على تقدير : سورة ذُكِرَ أبي لهب . وعنونها أبو حيان في (تفسيره) (سورة الذهب) ولم أره لغيره .

وعنونها ابن العربي في (أحكام القرآن) (سورة ما كان من أبي لهب) وهو عنوان وليس باسم

وهي مكية بالاتفاق .

وعُدَّت السادسة من السور نزولاً ، نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة التكوير .

وعدد آياتها خمس .

روي أن نزولها كان في السنة الرابعة من البعثة . وسبب نزولها على ما في (الصحيحين) عن

ابن عباس قال : (صعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات يوم على الصفا فنادى :

(يا صَبَاحَاهُ) (كلمة ينادى بها للإندار من عدوِّ يصبِّح القوم) فاجتمعت إليه قريش فقال :

إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد أرأيتم لو أني أخبرتكم أن العدوِّ مُسيكم أو مصبِّحكم

أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : ما جرَّبنا عليك كذباً ، فقال أبو لهب : تَبَّأ لك سائر اليوم ألهذا

جمعتنا ؟ فنزلت : (تبت يدا

" صفحة رقم 600 "

أبي لهب ((المسد : 1) . ووقع في (الصحيحين) من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت : (وأنذر عشيرتك الأقربين وقومك منهم المخلصين) خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى صعد الصفا (إلى آخر الحديث المتقدم .
ومعلوم أن آية : (وأنذر عشيرتك الأقربين) من سورة الشعراء ، وهي متأخرة النزول عن سورة تبت ، وتأويل ذلك أن آية تشبه آية سورة الشعراء نزلت قبل سورة أبي لهب لما رواه أبو أسامة يبلغ ابن عباس لما نزلت : (وأنذر عشيرتك الأقربين وقومك منهم المخلصين) (ولم يقل من سورة الشعراء) خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى صعد الصفا (فتعين أن آية سورة الشعراء تشبه صدر الآية التي نزلت قبل نزول سورة أبي لهب .

أغراضها

زجر أبي لهب على قوله : (تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ ووعيده على ذلك ، ووعيد امرأته على

انتصارها لزوجها ، وبغضها النبي (صلى الله عليه وسلم)

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصَلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ)

افتتاح السورة بالتبات مشعر بأنها نزلت لتوبيخ ووعيد ، فذلك براعة استهلال مثل ما تفتتح أشعار الهجاء بما يؤذن بالذم والشتم ومنه قوله تعالى : (ويل للمطففين) (المطففين : 1) إذ افتتحت السورة المشتملة على وعيد المطففين للفظ الويل ومن هذا القبيل قول عبد الرحمن بن

الحكم من شعراء (الحماسة) :

لَحَا اللَّهُ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلَانَ إِنَّمَا

أَضَاعَتْ تُغُورُ الْمُسْلِمِينَ وَوَلَّتْ

وقول أبي تمام في طالعة هجاء :

النارُ والعارُ والمكروه والعطب

ومنه أخذ أبو بكر بن الخازن قوله في طالع قصيدة هناء بمولد :

مجشري فقد أنجز الإقبال ما وعد

" صفحة رقم 601 "

والتَّبُّ : الخسران والهلاك ، والكلام دعاء وتقريع لأبي لهب دافع الله به عن نبيئه بمثل اللفظ الذي شتم به أبو لهب محمداً (صلى الله عليه وسلم) جزاءً وفاقاً .

وإسناد التَّبِّ إلى اليمين لما روي من أن أبا لهب لما قال للنبيء : (تبأ لك سائر اليوم ألهذا جمعنا) أخذ بيده حجراً ليرميه به . وروي عن طارق المحاربي قال : (بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا برجل حديث السن يقول : أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، وإذا رجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول : (يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه) . فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هذا محمد يزعم أنه نبيء ، وهذا عمه أبو لهب ، فوقع الدعاء على يديه لأنهما سبب أذى النبي (صلى الله عليه وسلم) كما يقال للذي يتكلم بمكروهه : (بفيك الحجارة أو بفيك الكثكث) .

وقول النابغة :

قعود الذي أبيتهم يثمدونهم

رمى الله في تلك الأكف الكوانع

ويقال بضد ذلك للذي يقول كلاماً حسناً : لا فُضَّ فُوك ، وقال أعرابي من بني أسد :

دَعَوْتُ لِمَا نَابِي مِسُوراً

فَلَبِّي فَلَبِّي يَدِي مِسُورِ

لأنه دعاه لِمَا نابه من العَدُوِّ لِلنَّصْرِ ، والنصر يكون بعمل اليد بالضرب أو الطعن .
وأبو لهب : هو عبد العزى بن عبد المطلب وهو عمّ النبي (صلى الله عليه وسلم) وكنيته أبو
عتبة تكنية باسم ابنه ، وأمّا كنيته بأبي لهب في الآية فقيل : كان يكنى بذلك في الجاهلية
(لحسنه وإشراق وجهه) وأنه اشتهر بتلك الكنية كما اقتضاه حديث طارق المحاربي ، ومثله
حديث عن ربيعة بن عباد الديلي في (مسند أحمد) ، فسماه القرآن بكنيته دون اسمه لأن في
اسمه عبادة العزى ، وذلك لا يُقره القرآن ، أو لأنه كان بكنيته أشهر منه باسمه العَلَمِ ، أو
لأن في كنيته ما يتأتى به التوجيه بكونه صائراً إلى النار ، وذلك كناية عن كونه جهنمياً ، لأن
اللهب ألسنة النار إذا اشتعلت وزال عنها الدخان . والأبُ : يطلق على ملازم ما أضيف إليه
كقولهم : (أبوها وكيّالها) وكما كني إبراهيم عليه السلام : أبا الضيفان وكنى النبي (صلى الله
عليه وسلم) عبدَ

" صفحة رقم 602 "

الرحمن بن صخر الدّوسي : أبا هريرة لأنه حمل هِرَّةً في كم قميصه ، وكنى شهر رمضان : أبا
البركات ، وكنى الذئب : أبا جعدة والجعدة سخلة المعز لأنه يلازم طلبها لافتراسها ، فكانت
كنية أبي لهب صالحة موافقة لحاله من استحقاقه لهب جهنم فصار هذا التوجيه كناية عن كونه
جهنمياً لينتقل من جعل أبي لهب بمعنى ملازم اللهب إلى لازم تلك الملازمة في العرف ، وهو
أنه من أهل جهنم وهو لزوم ادعائي مبني على التفاؤل بالأسماء ونحوها كما أشار إليه التفتزاني
في مبحث العَلَمِيَّة من (شرح المفتاح) وأنشد قول الشاعر :
قصدت أبا المحاسن كي أراه
لشوق كان يجذبني إليه

فلما أن رأيتُ رأيتُ فرداً

ولم أر من بنيه ابنا لديه

وقد يكون أبو هلب كنيته الحطب كما أنبأ عنه ما روي عن أبي هريرة : (إن ابنة أبي هلب
قالت للنبيء (صلى الله عليه وسلم) إن الناس يصيحون بي ويقولون إني ابنة حطب النار)
الحديث .

وقرأ الجمهور لفظ) هلب (بفتح الهاء ، وقرأه ابن كثير بسكون الهاء وهو لغة لأنهم كثيراً ما
يسكنون عين الكلمة المتحركة مع الفاء ، وقد يكون ذلك لأن) هلب (صار جزءاً عَلم
والعرب قد يغيرون بعض حركات الاسم إذا نقلوه إلى العلمية كما قالوا : شَمْس بضم الشين ،
لشَمْس بن مالك الشاعر الذي ذكره تأبط شراً في قوله :

إِنِّي لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِي فَقَاصِد

به لابن عَمِّ الصدقِ شَمْس بنِ مالك

قال أبو الفتح بن جَيِّ في كتاب (إعراب الحماسة) : (يجوز أن يكون ضم الشين على وجه
تغيير الأعلام نحو مَعِد يَكرب . وَهَلْكَ وَمَوْهَب وغير ذلك مما غُيِّر عن حال نظائره لأجل
العلمية الحادثة فيه اه .

وكما قالوا : أبو سَلْمى بضم السين كنية والد زهير بن أبي سَلْمى لأنهم نقلوا اسم سَلْمى بفتح
السين من أسماء النساء إلى جعله اسم رجل يكنى به لأنهم لا يكونون بأسماء النساء غالباً .

" صفحة رقم 603 "

ولذلك لم يسكن ابن كثير الهاء من قوله تعالى : (ذات هلب) وقرأه ابن كثير قراءة أهل مكة
فعل أهل مكة اشتهرت بينهم كنية أبي هلب بسكون الهاء تحقيقاً لكثرة دورانها على الألسنة في

زمانه .

وجملة : (وتب) إما معطوفة على جملة : (تبت يدا أبي لهب) عطف الدعاء على الدعاء إذا كان إسناد التبت إلى اليدين لأنهما آلة الأذى بالرمي بالحجارة كما في خبر طارق المحاربي ، فأعيد الدعاء على جميعه إغلاظاً له في الشتم والتفريع ، وتفيدُ بذلك تأكيداً لجملة : (تبت يدا أبي لهب) لأنها بمعناها ، وإنما اختلفتا بالكلية والجزئية ، وذلك الاختلاف هو مقتضي عطفها ، وإلا لكان التوكيد غير معطوف لأن التوكيد اللفظي لا يعطف بالواو كما تقدم في سورة الكافرون .

وإما أن تكون في موضع الحال ، والواو واو الحال ولا تكون دعاء إنما هي تحقيق لحصول ما دُعي عليه به كقول النابغة :

جَزَى رَبُّهُ عَنِي عَدِيٌّ بِن حَاتِمِ
جَزَاءِ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

فيكون الكلام قبله مستعملاً في الذم والشماتة به أو لطلب الازدياد ، ويؤيد هذا الوجه قراءة عبد الله بن مسعود (وقد تَب) فيتمحض الكلام قبله لمعنى الذم والتحقير دون معنى طلب حصول التبت له ، وذلك كقول عبد الله بن رواحة حين خروجه إلى غزوة مؤتة التي استشهد فيها :

حَتَّى يَقُولُوا إِذَا مَرُّوا عَلَيَّ جَدَثِي
أَرْشَدَكَ اللَّهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشِدَا

يعني ويقولوا : وقد رشدا ، فيصير قوله : أَرشَدَكَ اللهُ مِنْ غَازٍ ، لمجرد الثناء والغبطة بما حصَّله من الشهادة .

استئناف ابتدائي للانتقال من إنشاء الشتم والتوبيخ إلى الإعلام بأنه آيس من النجاة من هذا التبت ، ولا يغنيه ماله ، ولا كسبه ، أي لا يغني عنه ذلك في دفع شيء عنه في الآخرة .

" صفحة رقم 604 "

والتعبير بالماضي في قوله : (ما أغنى) لتحقيق وقوع عدم الإغناء .

(و) ما (نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية للتوبيخ والإنكار .

والمال : الممتلكات المتمولة ، وغلب عند العرب إطلاقه على الإبل ، ومن كلام عمر : (لولاً

المال الذي أحمل عليه في سبيل الله) الخ في اتقاء دعوة المظلوم ، من (الموطأ) ، وقال زهير :

صحيحات مائلٍ طالعاتٍ بمخرمٍ

وأهل المدينة وخير والبحرين يغلب عندهم على النخيل ، وقد تقدم عند قوله تعالى : (يا أيها

الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) في سورة النساء وفي مواضع .

(وما كسب) موصول وصلته والعائد محذوف جوازاً لأنه ضمير نصب ، والتقدير : وما كسبه

، أي ما جمعه . والمراد به : ما يملكه من غير النعم من نقود وسلاح ورئع وغروض وطعام ،

ويجوز أن يراد بماله : جميع ماله ، ويكون عطف) وما كسب (من ذكر الخاص بعد العام

للاهتمام به ، أي ما أغنى عنه ماله التالد وهو ما ورثه عن أبيه عبد المطلب وما كسبه هو

بنفسه وهو طريقه .

وروي عن ابن مسعود أن أبا لهب قال : (إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي نفسي

يوم القيامة بمالي وولدي) فأنزل الله : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) وقال ابن عباس : (ما

كسب) هو ولده فإن الولد من كسب أبيه .

بيان الجملة : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) أي لا يغني عنه شيء من عذاب جهنم . ونزل

هذا القرآن في حياة أبي لهب . وقد مات بعد ذلك كافراً ، فكانت هذه الآية إعلماً بأنه لا

يُسلم وكانت من دلائل النبوة .

والسين للتحقيق مثل قوله تعالى : (قال سوف أستغفر لكم ربي) (يوسف : 98) .
و (يصلى ناراً) يُشَوَى بها ويحس بإحراقها . وأصل الفعل : صلاةً بالنار ، إذا

" صفحة رقم 605 "

شواه ، ثم جاء منه صَلَّى كأفعال الإحساس مثل فرح ومريض . ونُصِبَ (ناراً) على نزع
الخافض .

ووصف النار ب (ذات لهب) لزيادة تقرير المناسبة بين اسمه وبين كفه إذ هو أبو لهب والنار
ذات لهب .

وهو ما تقدم الإيماء إليه بذكر كنيته كما قدمناه آنفاً ، وفي وصف النار بذلك زيادة كشف
لحقيقة النار وهو مثل التأكيد .

وبين لفضي (لهب (الأول و) لهب (الثاني الجنس التام .
(4 ، 5)

أعقب ذم أبي لهب ووعيدهُ بمثل ذلك لامرأته لأنها كانت تشاركه في أذى النبي (صلى الله
عليه وسلم) وتعينه عليه .

وامرأته : أي زوجته ، قال تعالى في قصة إبراهيم : (وامرأته قائمة) (هود : 71) وفي قصة
لوط : (إلا امرأته كانت من الغابرين) (الأعراف : 83) وفي قصة نسوة يوسف : (امرأة
العزیز تراود فتاها عن نفسه) (يوسف : 30) .

وامرأة أبي لهب هي أم جميل ، واسمها أرؤى بنتُ حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان بن
حرب ، وقيل : اسمها العوراء ، فقيل هو وصف وأنها كانت عوراء ، وقيل : اسمها ، وذكر
بعضهم : أن اسمها العوراء بهمزة بعد الواو .

وكانت أم جميل هذه تحمل حطب العضاه والشوكك فتضعه في الليل في طريق النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي يسلك منه إلى بيته ليعقر قدميه .

فلما حصل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته جعل لامرأته وعيد مقتبس لفظه من فعلها وهو حمل الحطب في الدنيا ، فأندرت بأنها تحمل الحطب في جهنم ليوقد به على زوجها ، وذلك خزي لها ولزوجها إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه ، وجعلها سبباً لعذاب أعز الناس عليها .

" صفحة رقم 606 "

فقوله : (وامرأته (عطف على الضمير المستتر في) سيصلى ((المسد : 3) أي وتصلى امرأته ناراً .

وقوله : (حمالة الحطب (قرأه الجمهور برفع) حمالة (على أنه صفة لامرأته فيحتمل أنها صفتها في جهنم ويحتمل أنها صفتها التي كانت تعمل في الدنيا بجلب حطب العضاه لتضعه في طريق النبي (صلى الله عليه وسلم) على طريقة التوجيه والإيماء إلى تعليل تعذيبها بذلك . وقرأه عاصم بنصب) حمالة (على الحال من) امرأته (. وفيه من التوجيه والإيماء ما في قراءة الرفع .

وجملة : (في جيدها حبل من مسد) صفة ثانية أو حال ثانية وذلك إخبار بما تعامل به في الآخرة ، أي جعل لها حبل في عنقها تحمل فيه الحطب في جهنم لإسعار النار على زوجها جزاء مماثلاً لعملها في الدنيا الذي أغضب الله تعالى عليها .

والجيد : العنق ، وغلب في الاستعمال على عنق المرأة وعلى محل القلادة منه فقل أن يذكر العنق في وصف النساء في الشعر العربي إلا إذا كان عنقاً موصوفاً بالحسن وقد جمعها امرؤ

القيس في قوله :

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش

إذا هي نصتته ولا بمعطل

قال السهيلي في (الروض) : (والمعروف أن يذكر العنق إذا ذكر الحلي أو الحسن وإنما حسن

هنا ذكر الجيد في حكم البلاغة لأنها امرأة والنساء تحلي أجيادهن وأم جميل لا حلي لها في

الآخرة إلا الحبل المجمعول في عنقها فلما أقيم لها ذلك مقام الحلي ذكر الجيد معه ، ألا ترى إلى

قول الأعشى :

يوم تبدي لنا قتيلاً عن جي

د أسيل تزينه الأطواق

ولم يقل عن عنق ، وقول الآخر :

وأحسن من عقد المليحة جيدها

ولم يقل عنقها ولو قال لكان غثاً من الكلام . ا هـ .

" صفحة رقم 607 "

قلت : وأما قول المعري :

الحجل للرجل والتاج المنيف لما

فوق الحجاج وعقد الدر للعنق

فإنما حسنه ما بين العقد والعنق من الجناس إتماماً للمجانسة التي بين الحجل والرجل ، والتاج

والحجاج ، وهو مقصود الشاعر .

والحبل : ما يربط به الأشياء التي يراد اتصال بعضها ببعض وتقيده به الدابة والمسجون كيلاً

يبرح من المكان ، وهو ضفير من الليف أو من سُيور جلد في طول متفاوت على حسب قوة ما يشد به أو يربط في وتدٍ أو حلقة أو شجرة بحيث يمنع المربوط به من مغادرة موضعه إلى غيره على بعد يراد ، وتربط به قلع السفن وتشد به السفن في الأرض في الشواطىء ، وتقدم في قوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ، وقوله : إلا بحبل من الله وحبل من الناس) كلاها في سورة آل عمران (103 112) ، ويقال : حبله إذا ربطه .
والمسَدّ : ليف من ليف اليمن شديد ، والحِبال التي تفتل منه تكون قوية وصلبة .
وقدم الخبر من قوله : (في جيدها) للاهتمام بوصف تلك الحالة الفظيعة التي عوضت فيها بحبل في جيدها عن العقد الذي كانت تحلي به جيدها في الدنيا فتربط به إذ قد كانت هي وزوجها من أهل الثراء وسادة أهل البطحاء ، وقد ماتت أم جميل على الشرك .

" صفحة رقم 608 "

" صفحة رقم 609 "